النقد الأدبي القديم وسؤال التخليق؛ النقد الأدبي القديم وسؤال التخليق

بحث في ملامح انضباط النقد العربي القديم لتوجيهات الخطاب القرآني

الدكتور
عبد الفضيل ادراوي
جامعة عبد المالك السعدي ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ تطوان

ancient literary criticism and the question of synthesis; Ancient Literary Criticism and the Question of Synthesis A study of the features of the discipline of ancient Arabic criticism of the directions of the Quranic discourse

Dr.
Abdul Fadil Adrawy
Abdelmalek Saadi University - Faculty
of Arts and Human Sciences - Tetouan

الملخص:-

تروم هذه المساهمة الدفاع عن جهة نظر نفترض من خلالها أن النقد العربي القديم، منذ بداية الدعوة الإسلامية، ظل ينصت لمقررات الوحي، فسار من مراحله البسيطة الأولى ممتثلا ولروح الدعوة الإسلامية ولتوجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فكانت المحاولات الأولى التي رافقت بداية انتشار الدعوة المحمدية، تنظر إلى القول وإلى الإبداع من منظور وظيفته الرسالية في المجتمع، ومن منظور القيم الأخلاقية السامية التي جاء بها الوحي.

الكلمات المفتاحية: النقد،ملامح، الخطاب القرآني.

Abstract:-

This contribution aims to defend a point of view through which we assume that the ancient Arab criticism, since the beginning of the Islamic call, has been listening to the decisions of revelation, so it proceeded from its first simple stages in compliance with the spirit of the Islamic call and the directives of the Noble Qur'an and the honorable Sunnah of the Prophet, so the first attempts that accompanied the beginning of the spread of the Muhammadan call It looks at speech and creativity from the perspective of its missionary function in society, and from the perspective of the sublime moral values brought by revelation.

Keyword: Criticism, features, Quranic discourse

الملخص:

تروم هذه المساهمة الدفاع عن جهة نظر نفترض من خلالها أن النقد العربي القديم، منذ بداية الدعوة الإسلامية، ظل ينصت لمقررات الوحي، فسار من مراحله البسيطة الأولى ممتثلا ولروح الدعوة الإسلامية ولتوجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فكانت المحاولات الأولى التي رافقت بداية انتشار الدعوة المحمدية، تنظر إلى القول وإلى الإبداع من منظور وظيفته الرسالية في المجتمع، ومن منظور القيم الأخلاقية السامية التي جاء بها الوحي.

وهي الملامح التي سوف تتوسع وتتفرع إلى عناصر جمالية عديدة، تجسدت في عديد من المقولات والمعايير والأحكام، التي تطورت وأصبحت قوانين مشهورة يحتكم إليها في تقويم الشعراء والكتاب والخطباء والمبدعين عموما. فكان كثير عديد من رواد النقد سواء في صورته الشفهية خلال العصرين الإسلامي والأموي، أو في صورته المدونة المكتوبة، مع رواد النقد اللغوي والشعري والخطابي، ابتداء من العصر العباسي. فكله انبنى على رؤى تجلت فيه روح الدعوة الإسلامية ومبادئ النظرة الرسالية للكون والإنسان، وكيفية حركة المبدع في المجتمع وعلاقته بالآخر، بل إن التأثر بروح القرآن ومنظوره للإنسان وقوله وفعله، سيجعل بعض النقاد يجتهدون في دعم أجناس قولية وخطابات بعينها، رأوا أنها تخدم النص القرآني وتساهم في تثبيت فلسفته في المجتمع، وبالمقابل تصدوا لأنماط تعبيرية وحاولوا تأطيرها وأحيانا محاصرتها، لأنهم رأوا أنها لا تماشي فلسفة الإبداع ونظام القول المنضبط لأخلاقيات النص القرآني.

مقدمة

لن يكون من نافلة القول الإشارة إلى إن القرآن الكريم قد شكل حدثاً مفصلياً في تاريخ الأمة العربية، بما استطاع أن يحدث في مسيرتها الحضارية من تغيير جوهري على كل الأصعدة، وبما استطاع أن يمدها به من مفاتيح البناء ومستلزمات السير، وبما مدها به من مقومات التكامل والنضج التي لم تترك جانبا من الجوانب التي تخص الإنسان في هذا الوجود إلا عمل على رعايتها وتعهدها، فهو "كتاب حياة الإنسان، الإنسان اللانهائي، الإنسان المتكامل، الإنسان الذي لا حد لتكامله"[١]، وهو"كتاب المعرفة والأخلاق والدعوة إلى السعادة والكمال..وكتاب الهداية والتعليم...والكتاب الأحديّ في تهذيب النفوس"[٢]. وغير

خاف أن الحياة الفكرية والمعرفية كانت من أهم الجوانب التي عمل القرآن الكريم على صياغتها وفق رؤيته الربانية الخالدة، وعمل على تأطيرها ضمن فلسفة جديدة وهوية خاصة ومتميزة، ساهمت في توجيه الأفكار والمعتقدات، وغيرت القناعات، وربطت العقول والقلوب بمقررات الوحي وتوجيهات السماء.

ولقد كان نشوء التفكير النقديّ والبلاغيّ في التراثي العربيّ الإسلاميّ، منذ بواكيره الأُولى، مرتبطاً بالنص القرآني ومتمحوراً حوله، وهذا ما تظهره مجهودات النقاد والبلاغيين وعلماء التفسير واللغوين والمهتمين منذ نزول القرآن الكريم. فقد ظلت الاجتهادات النقدية والبلاغية تنمو مرتبطةً بالنّص القرآني أساساً. بل إنها ببركته وظلاله امتدت في التوسع والتعمق، متمثلة في اجتهادات خاصة انصبت على الخطابة والشعر، وكل ما يهم الفصاحة والبيان العربيين. من أجل خدمة النص القرآني وفهمه وحسن تمثله.

١) القرآن وإيجاد البيئة النقدية الحاضنة

لا يمكن أحداً أن ينكر الدور المحوري الذي كان للقرآن الكريم، في توجيه وصناعة الوجود الحضاري للأمة العربية. ويعنينا من ذلك المجال المرتبط بالثقافة والمعرفة عموما، وعلى وجه التحديد ما له صلة بالنقد والبلاغة. فقد جاء القرآن متحديا الوجود الحضاري العربي بمعجزته البلاغية البيانية. وهذا يكشف عن ارتباط أمة العرب بالبيان ومتفرعاته ومجالاته، وتميزها به بين الأمم. هذا الأمر، سيكون له أثر كبير في خلخلة صرح تِلكم المجالات ذات الصلة بالبيان العربي، وخلق حالة جديدة من الفعل والتجدد والمراكمة، في سبيل الارتقاء بآليات التعامل مع هذا النص الجديد.

تبعا لما سلف سيكون للقرآن الكريم أثره الواضح في خلق وإيجاد بيئات جديدة، كان لها الدور البارز في إغناء الدرس النقدي والبلاغة في الساحة العربية، والمساهمة في بناء صروح مباحثهما الممتدة في الثقافة العربية الإسلامية. هذه البيئات رغم أنها كانت متعددة المشارب والاهتمامات، ولكن الذي يجمعها أنها مشدودة الى النص القرآني، ومتمحورة حوله، لأنه محركها وباعث الحياة الجديدة فيها.

وتتكون هذه البيئات من الشعراء والكتاب والخطباء، والمعلمين والمربين والوعاظ، ومن اللغويين والرواة والنحاة، ومن الفقهاء والمفسرين، ومن الإخباريين والنسابة والمؤرخين والسيريين والمتكلمين والفلاسفة وغيرهم. ورغم أن مجالات التتبع فسيحة ومتشعبة تنأى عن

الحصر، إلا أنه يمكن باقتضاب شديد رصد أهم البيئات التي ساهمت في تطوير وإغناء مجالات النقد والبلاغة العربيين، وعملت على بلورة مفاهيمهما ومصطلحاتهما.

أ.بيئة النحاة واللغويين:

لا يخفى الدور الكبير الذي كان للقرآن الكريم تطوير مجالات الدرس اللغوي، وما أملاه من حضور بين لعلماء النحو واللغة بفروعها المختلفة، فقد أدى الأسلوب القرآني إلى اتساع دائرة اشتغال اللغويين وعمل على تنشيط حركتهم الفكرية تدريسا وتأليفاً، منذ القرون الأولى لسيادة الدولة الإسلامية، على اختلاف المراحل والحقب. فوضعوا الأسس الأولى للدرس النقدي في تجلياته التطبيقية التواصلية، ووضعوا اللبنات الأولى للدرس البلاغيّ، تسهيلاً لولوج عالم النص القرآني وأخذاً بيد المتلقي العربي للتمكن من التعامل معه والاستفادة منه، وحسن استثماره أداءً و فهماً. حتى تتمكن العقول من تدبر معانيه وتمثل قضاياه. فالنحو حين "يحدد السلوك اللغوي في بناء الأسلوب وهندسة العبارة، يمكن الدارس من ممارسة نشاطه النقدي القائم على التفكير والتفسير، والملاحظة النافذة إلى أعماق النص، والكشف عن طاقاته المتعددة"[٣].

وهنا يظهر القرآن الكريم هاجساً ومحركاً دفع العلماء النحاة للبحث في ضبط العبارة الفصيحة ووضع القواعد اللازمة، عبر استنطاق مدونة الكلام العربي، في أفق تمييز اللغة المعيارية والمثالية، التي يمكن الاستناد إليها لفهم كتاب الله، وضبط أجهه الأسلوبية والتركيبية المتميزة، والتمكن من سبل بناء الدلالة. فالنحاة واللغويون يمكن اعتبارهم "أصحاب الفضل الأول في نشأة النقد بفروعه ومباحثه المختلفة وعلوم البلاغة وتفرعاتها: إذ تناثرت مباحثها ضمن قضايا النحو، ثم أتيح لما تناثر أن يُصاغ في قواعد بلاغية ذات صبغة علمية"[٤].

ولا يمكن للباحث في تاريخ النقد والبلاغة العربية، أن يغفل النظرات النقدية والبلاغية الثاقبة التي انطوت عليها بعض الكتابات المهمة والمؤسسة، مثل "الكتاب" لسيبويه، و "معاني القرآن" للفراء، و"مجاز القرآن" لأبي عبيدة. فهذه كتب بمثابة مصادر أفرزها الاهتمام بالنص القرآني، والانشغال ببيانه وفصاحته. وقد اشتملت، مثل غيرها من المصادر، على مباحث أساسية في النقد والبلاغة، تثبت التأثر بتوجيهات النص القرآني والامتثال لمبادئه. ولا يمكن باحثاً أن يتتبع بدايات نشأة النقد والبلاغة ويغفل ما ورد فيها. وقد بحث اللغويون

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

والنحاة في دلالة الألفاظ وتركيباتها، وتنبهوا الى تنوع الأساليب وسياقات الكلام، وما تؤديه من وظائف وايحاءات ومعان جديدة، فأفادوا بذلك كله الدراسات البلاغية والنقدية والعلوم المجاورة.

وكان من أهمية ارتباط البحث اللغوي والنحوي بالقرآن الكريم أن اعتبر "الجهل بالنحو جهلاً بالقرآن"[٥] . فقد بذلوا في معالجة أساليب القرآن جهوداً رائدة ، وأبدعوا سبلاً دقيقة مسعفة في الإمساك بالكلام، وإدراك متصرفات الخطاب القرآني في جوانبه البيانية وغيرها. وبالرغم مما ضاع من كتب حول معاني القرآن وإعرابه ومجازه ومشكله، مما أنتج خلال المرحلة الأولى للتدوين ، فإننا نجد ف "معاني القرآن" للفراء مثلا، نموذجاً عن جهود اللغويين النحاة الذين عنوا بإيضاح معاني القرآن والتنقيب عن جمال أساليبه، والكشف بعض أسرار الإعجاز القرآني، وتناول بعض المسائل البيانية التي ستصبح عمدة في الدرسين النقدي والبلاغي لاحقاً، وخصوصاً ما تعلق بمباحث التشبيه والاستعارة والكناية والحقيقة والمجاز والحذف والالتفات، والإضمار والتقديم والتأخير والتكرار والإيجاز والاستفهام ..إلخ.

وفي الاتجاه ذاته يحضر كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة، فقد حاول بدوره أن يكشف عن دقائق التعبير القرآني وأسرارها. فجاء خزاناً لقضايا البلاغة والنقد التي سوف تتطور وتتعمق عبر العصور اللاحقة. من ذلك مثلا قضايا البيان العربي، وخصوصية الأسلوب العربي، وكيف يمثله التراث الشعري، وكيف تظهره العبارة القرآنية أو تتجاوزه.

فيكون القرآن الكريم بتميزه وبأفضليته وعظمته المعجزة، قد شكل دافعاً محركاً، ومساهماً فاعلاً، في إيجاد بيئة من البحث اللغوي النحوي البلاغي، التي ستساهم في إغناء مباحث التفسير والبلاغة الإعجازية. وستعتمد كحجر أساس انبنت عليها توجهات ومنظورات بحثية لاحقة، واجترحت صوراً من التأمل فيما انطوت عليه تراكيب القرآن ودلالات الفاظه وأسرار أسلوبه. فكان بذلك القرآن الكريم منذ نزوله محط تدبر، ومنطلقاً لاجتهادات بلاغية نقدية تفسيرية، أثمرت تشييد صرح البلاغة والنقد العربيين.

ب ـ بيئة الأصوليين:

كان من تجليات تأثير القرآن الكريم في الثقافة العربية الإسلامية منذ عصرها الأول، ما استلزمه من اهتمامات جديدة، فرضتها الجوانب البحثية المعرفية، التي يتوقف عليها فهم

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

الكتاب الجديد، والاستفادة منه. بوصفهه خطاباً للتمثل والتطبيق، فضلاً عن كونه نصاً للقراءة والتأمل. فكان المبحث الأصولي الذي بوساطته تستنبط الأدلة الفقهية من الكتاب والسنة. فلا بد أن يوجد من يتأمل في أساليب القرآن، بنوع من العمق والتخصص والتفرغ الكلي أو شبه الكلي؛ (وَما كانَ المُؤْمنون لِيَنْفرُوا كافّةً، فلولا نَفَرَ مِن كُلّ فِرقَة منْهُم طائفَةٌ ليتفقّهُوا في الدين وَلِيُنذروا قومَهُم إذا رَجعوا إليهمْ لَعَلّهُم يَحْذَرُون)[٦]. وذلك من أجل أن يدركوا أسرار البيان القرآني، ويتعمقوا في تراكيبه، ويعرفوا أساليب التجوز في التعبير، وسبل الدلالة، ومستويات المعنى..إلخ. ف"الأصولي يريد أن يستنبط حكماً شرعياً، فيجد نفسه في حاجة إلى تحديد الخبر والإنشاء، والحقيقة والمجاز، والتأمل في الألفاظ ودلالتها، وفي طرائق التعبير ومراميها"[٧]. ولذلك وجدنا الشافعي في "الرسالة" لدراسة أصول الفقه، يجعل البحث الأصولي من ضمن اهتمامات الناقد والبلاغي، فيعتبر البيان ما تعلق بالطرق المؤدية لفهم القرآن واستنباط الأحكام منه. ولما كان القرآن قد نزل بلسان العرب، فلا بد من معرفة أساليب العرب وطرقهم في المجازات. وما وضعه الشافعي في مقدمة الرسالة، لدراسة أصول الفقه، من مباحث بلاغية، كان مدعاة لخوض الأصوليين والفقهاء في البلاغة. وهو ما دفعهم لإدراجها ضمن كتبهم ومباحثهم، بل إنه اعتبرها من طرق الفقه، فكانت البلاغة لدى الأصوليين تسعى في ضبط قواعدها، والقيام بالتقسيمات، تلبي الحاجات الى استنباط الأحكام[٨].

ج.بيئة المتكلمين

وهذه بيئة جديدة أوجدها النص القرآني في الساحة الثقافية العربية الإسلامية. فقد كان للرؤية الحضارية الجديدة تأثير بين في توجيه القناعات والمواقف وردود الأفعال المتباينة، والتي وصلت حد التناقض والصراع والصدام العنيف أحياناً، خاصة حيال تلك القضايا الجديدة التي جاء بها القرآن والوحي عموماً، عن الإنسان والكون والغيب والمصير والحساب والجزاء والبعث..إلخ. كل هذا، أوجد بيئة جديدة، وفتح مجالاتٍ من النقاش والتناظر والتجادل، والسعي نحو الإقناع والمحاججة. وقد استقر ضمن هذه البيئة على صورة علم قائم بذاته هو علم الكلام.

هذه البيئة العقلانية ذات الصلة بالنقد والبلاغة، ينتمي إليها كل من طرح مشكلة عقدية أو ما شابه، يثيرها النص القرآني. فالجهود الكلامية دفاع عن العقيدة، ومناصرة للإسلام

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

ومقررات الوحي. لكنها في حقيقتها تجليات نقدية بلاغية، لأنها تتحقق وتنجز على أرض التواصل، بمعرفة اللغة وأساليب التجوز، لإقرار وجوه التأويل. صحيح أن علماء الكلام اشتغلوا بالجدل وبالمناظرة، ومثلوا جبهة الدفاع عن الاسلام بانتصارهم لإعجاز القرآن والتدليل عليه، ولكن جهودهم لم تنفصل عن توظيف آليات البيان العربي. فكانوا مظهرا من مظاهر النقد والبلاغة أفرزها الاشتغال بالنص القرآني، وما فرضه من مستجدات فكرية وعقدية. ولعله من هذا الجانب، يكون لرأي القائلين من الباحثين المحدثين "إن البلاغة ولدت في أحضان المتكلمين"[٩] وجه من الوجاهة والصواب. حيث ضرورة الإقرار بأن المتكلمين كان لهم دور فاعل في التأسيس للبيان العربي، وتطوير مباحثه وتعميقها، بما يخدم العقيدة والقرآن. ويكفي أن رائد البيان العربي وأحد أشهر المؤسسين للنظرية النقدية في التراث العربي الإسلامي، وهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كان من كبار المتكلمين ومن رؤوس المعتزلة.

فيكون القرآن الكريم بهذا قد ساهم في إيجاد هذه البيئة الكلامية، التي احتضنت مباحث النقد والبلاغة، وأطرتها ضمن معطيات القرآن، التي جعلت الذائقة الجمالية "مشدودة بأحاسيسها وبخطراتها الفكرية إلى هندسة الجملة القرآنية وبنائها المعماري والبحث في إيحاءاتها وظلالها لتأسيس **كيان** أمة"[١٠]

٢) بدايات النقد والامتثال لروح القرآن

تجدر الإشارة من البدء الى أن الحياة الأدبية في عهد البعثة الإسلامية قد تأثرت الى حد كبير بالإسلام، وبالقرآن الكريم معجزته الخالدة. فالإسلام شكل بظهوره في جزيرة العرب حدثا جليلا ومفصلياً، أحدث تغييراً في حياة العرب وأوجد تحوّلا عاماً في النواحي كافة؛ الدينية منها والسياسية والاجتماعية والأدبية. وبفعل الدعوة الجديدة، تغيرت الرؤية للعالم وتغيرت قيم الأشياء والأخلاق في نظر العرب، فارتقت قيم أشياء وانخفضت أخرى، وأصبحت مقومات الحياة مؤسسة على تعاليم القرآن وتوجيهاته وتطبيقات الرسول وعترته من أهل البيت عليهم السلام.

وبخصوص النقد والبلاغة والأدب، معلوم الإسلام ظهر في جزيرة العرب، والبلاغة العربية في مستويات عليا من التميز والنضج، ولكن لم يكد العرب يستمعون إلى القرآن الكريم، حتى اعتراهم الانبهار أمام بلاغته التي تتحدى العقول والأفهام. ومن ثم لم يكن

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

عجباً أن تعجز قريش عن معارضته، وأن تسجد لبلاغته طوعاً أو كرهاً، وإن لم تؤمن به عقيدة.

ومن يتتبع ملامح الحياة الأدبية، وخاصة النقدية منها، خلال مرحلتي البعثة والخلفاء، يلحظ أن آثار توجيهات الدين الجديد، وتعاليم القرآن واضحة ومشهودة؛ فقد كان التشجيع والترغيب في حفظ القرآن واستظهاره، وكانت تخصص مكافآت لمن يثبت تفوقه وتمكنه من ذلك. في تخطيط مسبق وواع لجعل الذائقة العامة تتشبع بمادئ القرآن، وجماليته البيانية الساحرة.

روى صاحب الأغاني أن غلبا أبا الفرزدق الشاعر، جاء إلى علي بن أبي طالب بالفرزدق، بعد موقعة الجمل بالبصرة فقال: إن بني هذا من شعراء مصر فاسمع منه. فقال (عليّ عليه السلام): علمه القرآن. فكان ذلك في نفس الفرزدق، فقيد نفْسَه، وآلى أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن[١١].

ويروى عن عمر بن الخطاب تشجيعه على حفظ القرآن والامتثال لتعاليمه. ومن كلماته في ذلك: "اقرءوا القرآن تُعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله"[١٢]. وقوله: "كونوا أوعية الكتاب..."[١٣] أي احفظوه في صدوركم.

كما كان ثمة تشجيع على تعلم الأدب الترشيدي الهادف، الذي لا يتنافى ومبادئ الإسلام، ولا يخالف روح الدين الجديد. يظهر ذلك في حث المسلمين على تلقين أبنائهم أسْيَر الأمثال وأحسن الشعرِ وأَعَفَّه. ومن المأثور في هذا الصدد قوله: "علموا أولادكم العَوْم والفُروسية، ورَوُّوهم ما سار من الأمثال وحَسُن من الشع"[١٤]. وقوله "ارْوُوا من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أَحسنَه، ومن النّسب ما تُواصَلون عليه، وتُعرفون به، فرب رحم مجهولة قد عرفت فوصلت، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها"[١٥].

ومثل ذلك قوله لابنه عبد الرحمن: "يا بني! انسب نفسك تصل رحمك، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن من لا يعرف نسبه لم يصل رحمه، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤدّ حقاً، ولم يقترف أدباً"[١٦].

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري: "مر من قبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب".

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

وعندما قصدوا إلى تفسير القرآن شعروا بحاجتهم الى الشعر، قال ابن عباس: "اذا قرأتم شيئا من كتاب الله ولم تعرفوه فاطلبوه من أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب".

فيتبين مدى التأثر بتوجيهات القرآن منذ القرن الأول الهجري، في توجيه دفة النقد والموقف من الأدب، وطبيعة النظر إلى الحركة الإبداعية، حيث التشجيع على الأدب الممثل لروح القرآن، والمستلهم لتعاليمة التخليقية الترشيدية، وابتغاء الفائدة، والحث على أن يُلَقَّن الأبناءُ أحسنَه وأعفه تقويما لألسنتهم وتهذيبا لنفوسهم، واستعانة به عند الاقتضاء في تفهم القرآن كتاب الله.

أ) نحو وعي نقدي عملي(النقد وبلاغة العمل)

ولعل من تجليات التأثير البيِّن للدين الجديد على الوعي النقدي المبكر للمسلمين، ما لاحظه الدارسون ومؤرخو الأدب على الشعر من تراجع خلال عهد المرحلة للأولى للبعثة النبوية ومرحلة الخلافة، نظراً إلى انصراف المسلمين للدعوة وشؤونها، مثلما لوحظ تراجع المساجلات الشعرية ذات النفحة الجاهلية، وتحولها إلى مساجلات بين شعراء المشركين من قريش وشعراء الإسلام الذين كان حسان ابن ثابت أحد ألسنتهم، والذي تغيرت نبرته الهجائية بشكل كليّ، متأثرا بتعاليم القرآن وممتثلاً لتوجيهات الرسول (ﷺ)، بتفادي الفاحش من الكلام، وابتغاء القول الحسن الذي لا يخالف الفطرة السليمة ولا يوقع مظلمة، مقتفياً التوجيه النبوي: "اُهجهم ومعك الروح القدس".

كما أن من أمارات الأثر البين لرسالة القرآن في اهتمامات الرعيل الأول من الذين تلقوا الدعوة الجديدة، وعايشوا تطورها وامتدادها، ذلك التحول العام في المخيال الأدبي للمسلمين، حيث انصرفوا للعمل والسعي في بناء الهوية الجديدة، والدفاع عنها وتحصينها، عبر الانخراط في حركة الفتوحات والمشاركة في الغزوات والمعارك، ما أدى إلى تراجع الشعر، بسبب اشتراك الشعراء فيها، تحت تأثير الرغبة في نصرة الأمة، والإيمان بحتمية العمل والفعل، والتضحية والمبادرة، دون الاكتفاء بالقول. يبين ذلك القول المأثور عن عمر بن الخطاب: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته..."[١٧]

بل إن الموقف من اللغة العربية، ومتابعة كيفية استعمالها، ورفض صور اللحن فيها، خلال القرن الأول الهجري، كلها أمور لتدل على تأثر واضح بمبادئ الدين الحنيف، ونزوع نحو حفظ

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

النص القرآني من الخطإ والتحريف. ويمكن بيسر ملاحظة أن توجيهات بعض الخلفاء تدل على نزوع الحركة النقدية إلى حفظ اللغة العربية أولا، والغيرة على صحتها من اللحن، حتى لا يقود ذلك إلى اللحن في قراءة القرآن، وبالتالي سوء فهمه وتأويله. فقد كانوا يعربون كلامهم على نحو ما في القرآن، ومن كان يخطئ في محضرهم، كانوا يرشدونه ويصوبون خطأه، استناداً إلى العبارة الصحيحة والنطق السليم في العبارة القرآنية. ويذكر أن رجلا لحن في بحضرة النبي (ﷺ)، فقال: "أرشدوا أخاكم فقد ضل". وفي نفس السياق يروى عن أبي بكر قوله: "لَأن أقرأَ فَأُسْقِطَ أحبُّ إليَ من أن أقرأَ فألحن" [١٨]. وعلى وهديه سار الخلفاء في رعاية اللغة والدعوة الى سلامتها وتحري حفظها من شوائب اللحن قولا وعملا.

ب) نحو نقد يحصّن هوية الأمة/ نقد بان لمرجعية محصنة

ولا يعزب عن الذهن أن من أهم تجليات الدور الفاعل للنص القرآني في مسيرة الثقافة العربية الإسلامية في التراث العربي الإسلامي توجيهه دفّتي النقد والبلاغة منذ نشأتهما المبكرة. فقد دفع كل المهتمين باللّسان العربي، من العلماء الذين اشتغلوا بعلوم اللغة وبالنحو والبلاغة عموما، وبلغة النص القرآني وببلاغته وإعجازه، ليكثفوا جهودهم التنظيرية والتطبيقية في أفق تأسيس نظرية لغوية في النقد والبلاغة تكون قادرة أن تشكل مرجعاً ومنهلاً يستند إليه في مدارسة القرآن الكريم.

كما كان للرؤية الجديدة التي جاء بها القرآن الكريم عن الإنسان أن جعل منه كائنا فاعلا ومسؤولا نفسه وعن محيطه وبيئته، وعن رسالته في الحياة، ودوره ومسؤوليته في حفظ الأمة والدفاع عنها وتحصينها من الأطماع. وضرورة الحفاظ على هويته وتاريخه وثقافته، وكل ما يجعل منه كائنا قويا ومستقلا وفاعلا في مجتمعه ، متشبثاً بتاريخه وتراثه. فكان هذا دافعا أساساً نحو التمسك بمقومات الهوية، وبالثقافة والتراث المعرفي الذي يشكل تاريخ الأمة ورصيدها ومعين معارفها وآدابها وتاريخها.

هذا الأمر هو ما يفسر لنا الاهتمام المتزايد بالشعر، الذي أُعطِيَ مكانةً خاصة ولافتة، وجعلوه في المرتبة الأولى بعد القرآن الكريم، مصدراً للاستشهاد واستنباط القضايا والقوانين والأحكام المرتبطة بالتقعيد والتنظير. وقد حصل ذلك لإدراكهم أن الذائقة العربية مستنبتة في التربة الشعرية، ومتشبّعة بقوانين الشعر وآفاقه الممتدة، التي من شأنها

أن تتيح للتنظيرين البلاغيّ والنقديّ مساحةً واسعةً، تغني اللغة وتفتح أمامها آفاقا أوسع ومجالات أرحب.

إننا نكاد لا نصادف بلاغيا إعجازياً ولا مفسراً اشتغل بالبيان القرآني، إلا وله تأكيد صريح على أهمية الشعر وقيمته ومركزيته في الرواية والاستشهاد. فقد أدركوا أنه الوسيلة الأولى والطريق المثلى لحفظ تاريخ الأمة وصيانة هويتها. لذلك كانت الإرهاصات الأولى لتشكل ملامح النقد في التراث العربي الإسلامي تنطلق من محورية الشعر في التفكير والاشتغال. إن الشعر كما ينقل ابن سلام الجمحي(ت.٢٣١ه)، كان بالنسبة إلى العرب منذ الجاهلية "ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به، يأخذون وإليه يصيرون"[١٩]. وفي هذا الشأن تروى القولة المشهورة عن عمر بن الخطاب: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه"[٢٠]. فالأمة معنية بحفظ هذا المصدر الأساس للمعرفة عندها، فهو السجل الذي يحتوي كل مقومات الأمة العربية، ويشكل ذاكرتها الباقية المسترة.

٣) حركة النقد بين الشعر والقرآن الكريم / من الشعر إلى القرآن

١) النقد وتثبيت التراث الشعري لإثبات عظمة القرآن

تبعاً لذلك، كانت الكتابات النقدية البلاغية الأولى تروم المحافظة على مصدر معارفها وعلومها وتاريخها، فكانت تحتفي أيما احتفاء بالشعر وضروبه وبطبقات الشعراء ومنازلهم، وبمرويات الشعر الطوال والقصار والنتف من القصائد. بل إننا نجد جمهور الفقهاء والإعجازيين وعلماء اللغة على حد سواء، يعقدون أبواباً من كتبهم لبيان فضيلة الشعر وأهميته. فهذا ابن رشيق القيرواني يعقد باباً في فضل الشعر[٢١]، ويبين فضله وأهميته، ويورد كثيراً من أشعار الخلفاء والفقهاء والقضاة. بل إنه يتحمس في أكثر من موطن، فيصرح بتفضيله الشعر على النثر، "لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة". يبرر هذه الأفضلية بدور الشعر في الحياة، وبمساهمته في حماية القبائل وانتصاراتها في الحروب، ودفع المضار ورد الخصومات[٢٢].

ويشير ابن قتيبة(ت) إلى ما يؤكد أهمية المادة الشعرية في علاقتها بالعلوم والمعارف الأخرى، فيبين أن منتقياته من الشعر والشعراء في مؤلفه المعروف، إنما كان قائما على مدى رواج البضاعة الشعرية بين العلماء في الحقول المختلفة: "وكان أكثر قصدي

للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله (ﷺ)"[٢٣].

ومن يتتبع كتاب المزهر للسيوطي[٢٤]، يجده حافلاً بشواهد نثرية وشعرية كثيرة جداً، من مختلف المواضيع والعصور الأدبية. وقد اعتمد السيوطي في مزهره العديد من المصادر، كالخصائص لابن جني، وأمالي القالي، وأمالي ثعلب، ونوادر أبي زيد، والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس... وغيرهم، وكلها يأخذ عنها استشهادها بالشعر واستثماره في التخريجات اللغوية، وفي بيان القواعد والقوانين والأساليب التعبيرية البلاغية. بل إنه يعقد مبحثا مطولا في معرفة الشعر وأحوال الشعراء، ودوره في معرفة اللغة والتنظير لها: "قال ابن فارس: والشعر ديوان العرب، وبه حفظت الأنساب، وعرفت المآثر، ومنه تُعُلِمت اللغة، وهو حجة فيما أشكل من كتاب الله، وحديث رسول الله (ﷺ)، وحديث صحابته والتابعين"[٢٥].

وللغرض نفسه أعطى عبد القاهر الجرجاني أهمية كبرى للشعر في دلائل الإعجاز، لأنه رأى أن معرفة الإعجاز متوقفة على ضبط استعمالات اللغة الفنية وانحرافاتها عن الأصل المباشر. يقول: "إن ها هنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الرويةُ والفكرُ، ولطائفَ مستقاها العقْل، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هُدوا إليها، وكُشِف لهم عنها، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضا.. حتى ينتهي الأمر الى الإعجاز، وإلى أن يخرج من طوق البشر"[٢٦]. فكان المعترضون على الشعر بمثابة المعترضين على كتاب الله، لأنهم يعترضون على طريق فهم كتاب الله وإدراك فصاحته. يقول: "إذا كنا نعلم أن الجهة التي منها قامت الحجة بالقرآن وظهرت، هي أن كان على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا الى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك، إلا من عرف الشعر الذي هو ديوان العرب، وعنوان الأدب"[٢٧]. لأنه كان "ميدان القوم إذا تجاروا في الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيهما قصب الرهان"[٢٨]. لذلك يستنتج أن الزهد في معرفة الشعر وتعلمه، والاعتراض على أهميته، إنما هو طريق للاعتراض على تعلم كتاب الله وإدراك أسراره، فكان" الصاد عن ذلك صاداً عن أن تعرف حجة الله تعالى" لأنه بمثابة "من أعدمك العلم بأن فيه شفاءً، وأن لك فيه استبقاءً"[٢٩].

هذه الأهمية التي أعطيت للنص الشعري من لدن البلاغيين والإعجازيين ومفسري القرآن، وكل اللغويين ونقاد الأدب وغيرهم، كانت كذلك بوصفه طريقاً لفهم القرآن الكريم، ووسيلة فضلى لاكتساب الأهلية الفنية لإدراك أسرار الفصاحة القرآنية الخالدة.

ب) بلاغة الشعر طريق لفهم بلاغة الإعجاز القرآني

ولعل من القضايا التي تستوجب التوقف عندها ملياً، أنّ التراث العربيّ الإسلاميّ رغم أنه يشهد "لعلو كعب الشعر..والبلاغة العربية تنطوي في كنهها على تصور جمالي شعري"[٣٠]، ورغم أن صاحب المنهاج يشير إلى أن "علم البلاغة يشتمل على صناعتي الشعر والخطابة"[٣١]، إلا أن هذا الاهتمام المتزايد بالشعر لم يكن لذاته بقدر ما كان هاجسه ومحركه الأساس خدمة النص القرآني ، من أجل ضبط بلاغته الخاصة وتسهيل فهمه ومدارسته، وإدراك بعض من مستوياته الإعجازية.

بل إن الاهتمام بالشعر وبجماليته الأسلوبية التعبيرية إنما كان بعد نزول النص القرآني وانتشاره بين الناس في المجتمع، وبعد أن تفاعل معه الناس وأحبوه وتذوقوا خصوصيته البيانية والدلالية والجمالية الفريدة، وبعد إدراكهم أن فهمه وتمثل لغته وحسن استيعاب عبارته المتميزة، يتوقف على امتلاك ذائقة جمالية، وكفاءة بيانية تؤهلهم لحسن تمثله وتمكنهم من استكناه حقائقه اللامتناهية. "فأما من كان متناهيا في معرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة، والفنون التي يمكن فيها إظهار الفصاحة، فهو متى سمع القرآن عرف إعجازه"[٣٢]

هكذا استشعر النقاد والبلاغيون العرب والمسلمون الأوائل الذين احتكوا بالنص القرآني، وببلاغته الخالدة والمعجزة، استشعروا الحاجة إلى مزيد تفقه في الشعر والخطابة، وتمثل مقوماتهما التعبيرية البيانية، والتقعيد لها وتقنينها وضبطها في مستويات علمية دقيقة، لتكون مدونةً مساعدة، ومرجعاً أساساً ودليلاً متعارفاً ومتاحاً، يوصل المتلقي العربيّ المسلم ويقوده للدخول في بحر القرآن الكريم، الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفذ حقائقه.

فكان الاهتمام الكبير بالشعر وبجمالياته الممتدة، نظراً إلى حضوره القويّ في الثقافة العربية منذ القديم. خاصة وأن الشعر ارتبط في ذهن الإنسان العربيّ بالإنشاد، وبالتغني بالقيم الخلقية والمعنوية، وبالدفاع عن الإنسان، خاصة القبيلة أو الأمة. ومعروف أن الشاعر كان لسان قومه يخلد آثارهم ويعبر عن حكمهم ومعارفهم. فكان الاهتمام بالشعر ضرورة ملحة أملتها الحاجة إلى فهم النص القرآني وضرورة استثمار ذاكرة الإنسان الشعرية ليتحقق

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

ذلك. فالقدح المعلى للشعر في التاريخ المبكر لنشوء التفكير النقدي البلاغي لدى العرب المسلمين، أساسُه وغاياته في نهاية المطاف، ليس للشعر في حد ذاته، بل لخدمة النص القرآنيّ. فهو الأساس وهو الغاية الأسمى الكامنة من خلف اهتمام النقاد والبلاغيين والإعجازيين بالشعر.

ومن ثمّة لا يجانب الصواب من يرى أن القرآن الكريم كان "حافزاً مباشراً لظهور الدراسات البلاغية (النقدية) منذ القرن الثاني الهجري مع مفسرين لغويين: الفراء ٢٠٧ه وأبو عبيدة ٢١٠ه والأخفش ٢١٥ه، إلى أن تبلورت مع ظهور الكتابات الخاصة بالإعجاز خلال القرنين الرابع والخامس"[٣٣].

ج) أفضلية النص القرآني ومرتكز بلاغة الشعر

ومن يتتبع الاجتهادات النقدية والبلاغية في مراحل تبلورها وتطورها في التراث العربي الإسلاميّ، يدرك بوضوح أنها اجتهادات كانت تعنى بتثبيت حقيقة تميز النص القرآني وأولويته في الجمالية والبيانية والفصاحة؛ فكل ما في الكلام البشري المتميز، وخصوصاً الخطاب الشعريّ بوصفه النص النموذج والمثال والمعيار، كل ما فيه من سمات وطرق تعبير وأعراف بناء، تشكل الأفق الجمالي والذائقة النقدية البلاغية للمتلقي العربي المسلم، كل ذلك يثبت أن النص القرآني " نص عربيّ فصيح يجري على سنن كلام العرب وخصائصه"[٣٤].

إن النص القرآني يشكل في هذه الاجتهادات النقدية البلاغية ما يمكن أن نسميه بالنصّ المثاليّ المستوعِب، وهو النص المتعالي والموجّه والمعيار والمحقق لمقومات الأجناس الخطابية الأخرى. وطرائقه الأسلوبية وتركيبته اللسانية النموذجية والمرنة والثابتة. تدعمه وتشهد له تلكم المقومات الأجناسية مثلما أنه هو نفسه يُتَمَثّل ويُدرَك بها. لذلك فرض التعامل مع هذا النص على الجميع، من نقاد وبلاغيين ولغويين وإعجازيين وعلماء قراءات ومفسرين، ضرورة تمثل تلكم الجماليات والإحاطة بها وبامتداداتها وتنوعها، لأنها الوسيلة والآلة المساعدة على حسن إدراك هذا النص وإثبات تميزه وفرادته.

لقد كان النص القرآني بذلك، محفزاً رئيساً لنشوء كل تلكم الدراسات النقدية والبلاغية على تعددها وتفرعها، وكان دافعاً أساساً لضبط قوانين أجناس القول وأفانينه التعبيرية والأسلوبية والخطابية والإيقاعية والحجاجية الإقناعية، في أفق العودة منها وبها، (العودة من بلاغة الشعر وجمالياته، بآليات تحليلية ومفاتيح ومعايير تسهل ضبط الفصاحة والبيان،

وتتيح إمكان الإمساك بمقومات الخطاب المتميز)، من أجل تحقيق القراءة المتعمقة، وإيجاد الفهم السليم والظفر بالتأويل المصيب لخفايا وأسرار هذا النص. وهو النص الذي يقر أحد رواد الدراسات الإعجازية وهو الباقلاني بأنه نص ذو تميز وأفضلية خاصين، لأن "نظم القرآن جنس متميز وأسلوب متخصص"[٣٥].

إن أفضلية النص القرآني وعظمة شأنه أمر مُسَلّمٌ به وفي حكم الإجماع، وهو خارج عن طوق الشك أو الارتياب، إلا أن إثبات ذلك والتدليل عليه لا يمكن أن تثبت إلا بالاستناد إلى جمالية الأساليب الجمالية السائدة والمكونة للذائقة الجمالية للمتلقي العربي المسلم. ولا يتحقق إثبات الأفضلية ولا "يتم الإقناع بأفضلية التعبير القرآني إلا إذا كان لهذا التعبير ما يناظره في ذهن المتلقي"[٣٦]. ولا يخفى أن ذهن المتلقي متشبع بالمعرفة الشعرية وبجمالياته الآسرة، التي هي متجذرة بمعاييرها في وعي ومخيلة العربيّ منذ الجاهلية، والتي جاء النص القرآني يتحداها ويتميز عليها ويتحدّاها. الأمر الذي فرض حتمية تفعيل مدارسة البلاغة الشعرية وقاد إلى التدقيق فيها وإعمال النظر ومعاودته في مقوماتها وتفاصيلها، بغية الانتصار لجمالية وبيانية القرآن وإثبات عظمة بيانه وتمايز فصاحته.

وعندما يشير سيد قطب المفسر المعاصر، إلى أن بلاغة الإعجاز القرآني قائمة على "تناسق تراكيبه وألفاظه، واستيفاء نظمه لشروط الفصاحة والبلاغة المعروفة"[٣٧]، فهو إنما يشير إلى حقيقة أن القرآن الكريم زكى الجمالية السائدة بين العرب، وتبنى معايير البلاغة المعروفة التي احتضنها الشعر تحديداً، وواترتها بعض الأجناس الخطابية القريبة من الشعر كالخطابة والترسل.

كل هذا يشير إلى الدور الأساس لهذا النص القرآني في تفعيل المباحث النقدية والبلاغية المهتمة بهذه الأجناس التعبيرية، والدفع بها نحو مزيد من التطور والتعمق، وصولاً إلى مستويات من العلمية والتقنين وصور التقعيد التي سارت تتجدد باستمرار وتتواصل بموازاة استمرار النص القرآني وتجذره بين الناس عبر العصور.

٤) القرآن وتوجيه النقد القصصي

لقد شكل القرآن الكريم إطاراً عاما وفضاء "دلاليا" لفعل القص أو السرد، وكل ما يرتبط بالإخبار والإنباء وتقديم المعلومات والأخبار عن الماضي. وهو ما سيقود قافلة النقد القصصي في التراث العربي الإسلامي نحو مسار خاص ونوعيّ، إذ عمل على نقله من

العموم والإطلاق، ليجعله يمتثل لمعيارية قيمية، وجهته ليكون فعلاً تخليقياً ترشيدياً، لا فعلاً إبداعياً تخييلا عبثياً ومطلق العنان.

أ) القص وقيد المنفعة

إن منطوق ومدلول كثير من الآيات القرآنية المتحدثة عن القص والإخبار والإنباء، ربطت هذا الفعل بالمعرفة والوظيفية والإفادة في المجتمع؛ من ذلك: (وكلاً نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك)[٣٨]، حيث دلالة التثبيت والطمأنة، وقوله تعالى: (نحن نقصّ عليك نبأهم بالحق)[٣٩]، حيث ارتباط القص بالصدق والحقيقة، وقوله: (إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين)[٤٠]. فهي كما يبدو مشروطة بقيد الحقيقة واليقين، مثلما هي مقرونة بالتدبر والاتعاظ الاعتبار والتفكر، كما في قوله تعالى: (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون[٤١]. وقوله(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب[٤٢]. إضافة إلى شرط الحسن وتحاشي القبح والشر والإساءة؛ (نحن نقص عليك أحسن القصص)[٤٣].

تبعا لهذه الدلالات المركزية لفعل للقص في القرآن الكريم، سوف ينظر النقد إلى الفعل السردي من هذا المنظور التخليقي الترشيدي، وستتحكم هذه المعيارية في التعامل مع القص بتفريعاته، منذ بداية نشأة النقد. استحضاراً لتوجيهات الدلالات القرآنية وظلالها ذات الصلة بالقص.

هذا الأمر استلزم جملة من الشروط النقدية ذات السمت الأخلاقي، وجب تو توافرها في القاصّ أو الإخباري في المجتمع الإسلامي، فهو ملزم بتحري الدقة وقول الحقيقة، وأن يكون متن الخبر صحيحاً، حسناً، بيناً، وإلا عُدّ القاص مُخلطا وخارجاً على الفضاء الدلالي للقصص، الذي أرسى دعائمه القرآن. فلا يجوز للقاص أن يبتدع من مخيلته القصص المكذوبة. كما لا قيمة للقصص ما لم يحافظ على وظيفته الوعظية والتذكيرية.

فالقاص هو الإخباري الواعظ المذكر، صاحب عظة ومهمة تذكيرية، تهدف إلى غاية دينية اعتبارية. وهذا ما شاع وعرف عن القصص والقاصين منذ بداية نشأة فعل القص مع بداية الدعوة الإسلامية[٤٤].

ب) القص والتوجيهات النبوية القيمية

لقد صدر الرسول (ﷺ)، في تعامله مع فعل القص، وحكاية الأخبار، وما كان يورده الوعّاظ والقّصاصون عن نفس الرؤية التي حددها وأطرها القرآن الكريم، وهي الرؤية التي تحكمت سواء في النظر إلى فعل القص ووظيفة القصص أو في النظر وتقويم إلى شخصية القاص ودوره في المجتمع.

فعلى هدي مبادئ النظرة القرآنية التي حددت فضاء دلاليا ترشيدياً للقصص، عمل الرسول بدوره على توجيه دلالات القص بما يضمن قَصاً هادفا وبانياً للمجتمع والقيم الإنسانية، ينهض بمهمة تربوية اعتبارية، مثلما اشترط في القاص التحلي بصفات الصدق والأمانة والدقة وابتغاء الحسن في القول، وأمينا فيما يقص. فكانت الخدمة التي يقدمها القاص للدين هي الفيصل في موقف (ص) منه. وفي هذا الصدد ورد قوله "لا يقصُ على الناس إلا أمير أو مأمور أو مختال"[٤٥]، وفي رواية أو"مُراءِ". فالقصاص إذن أحد ثلاثة؛ إما أن يكون أميراً من أمراء المسلمين، مكلف بتوجيه الناس ووعظهم وتذكيرهم بشؤون دينهم وصلاح دنياهم، أو مأموراً يؤمر بالقص بطلب من الأول وكلاهما هنا، إنما يوظف قصصه في خدمة الدين، أو ينتدب مختال أو مراء نفسه للقص، دون أن يؤمر، لأنه يريد الرئاسة لنفسه، والتشبه بالأمير، ولا ينطق إلا عن هوى يستميل به قلوب الناس لمزيد من الرفعة. وهذا الصنف من القصاص مذموم، لأنه يصدر عن هدف شخصيّ لا علاقة له بخدمة المجتمع وتوجيه الناس. وستنطبق صفة المرائي أو المختال فيما بعد على من يتكسّب بالقصّ.

ج) موقفان متعارضان من القص/ القاص

ج ــ ا) ولقد تجلّى موقف الرسول تجاه القصاص تبعاً لموقفهم منه ومن رسالته في مثالين واضحين: أولهما مع تميم بن أوس بن خارجة الداري، أحد أبرز القصاصين في العصر النبوي، والذي يكشف موقف الرسول (ص) تجاهه عن أبرز تجليات التوجيه الديني لحركة القص في المجتمع الإسلامي في العصر النبوي، حيث خُصَّ باهتمام وترحيب من قبل الرسول (ص). فقد وفد من الشام وأسلم، وصحب الرسول في غزاوته، وروى عنه ثمانية عشر حديثاً"[٤٦]. واستحسن الرسول (ص) مروياته وقصصه، لأنها تتوافق وما يورده الوحي، وتتطابق معه. ولذلك قربه إليه، وقام برواية قصة رواها عنه وهي " قصة

الجساسة"[٤٧]. وهي التي تتطابق ما كان يحدث به الرسول عن الدجّال. فالداري يروي قصة لقائه بالدجال في جزيرة وسط البحر، وكيف أخبره أنه سيظهر في يوم ما، وهو ما يطابق ما كان يحدث به الرسول حول ظهور الدجال في زمن آتٍ. فهي قصة صادقة، وذات عبرة ومغزى تربوي، تحذر من الفتن ومن أحداث آخر الزمن، وتنبه إلى ضرورة الاستعداد بالعمل الصالح والتقوى. لذلك استحسنها الرسول (ص) وتبناها ووافق على روايتها والاستماع إليها.

ج ـ ب) على عكس موقفه من قصص النضر بن الحارث بن علقمة، القاص القرشيّ الذي يتصل بالرسول نسباً، غير أنه كان " أشدّ قريش في تكذيب النبي"[٤٨]. عاشر الأحبار والكهنة، وحصل من العلوم القديمة على قدر جليل، وأطلع على الحكمة ورحل إلى فارس وتعلّم ضرب العود والغناء، وقدِم مكة، فكان يحدّث أهلها بأخبار الفرس واليهود والنصارى، إبان المدة التي كان الرسول (ص) ينشر الرسالة الإسلامية في مكة. وكان يحضر بعض مجالسه، وهو يعظ قومه ويحذرهم مما أصاب الأمم الخالية، وحالما يفرغ من وعظه وينصرف، يُقوّم النظر ويحدثهم عن أخبار رستم وأسفنديار الفارسية ويقول: "ما محمدٌ بأحسن مني حديثا وما حديثه إلاّ أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتُها"[٤٩]. ورداً على تهمة أن الرسول يكتتب أخبار الأولين، نزلت آيات في حق النضر ترد تهمته للرسول، منها قوله تعالى(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بُكْرَةَ وأصيلاً.[٥٠]. وقوله (إذا تُتْلى عليه آياتُنا قال أساطير الأولين)[٥١]. وكما يقول ابن عباس" فإن ثماني آيات نزلت بحقه[٥٢]، منها واحدة أنذرته بالويل وسوء العاقبة والعذاب الأليم، وهو ما آل إليه مصيره. قال تعالى: (وَيْلٌ لكُلِّ أفّاكٍ أثيم، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يُصرُّ مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم)[٥٣]. وما حصل للنضر فيما بعد، يتطابق ونبوءة سورة "الجاثية"، ففي معركة بدر كان على رأس لواء من قريش ووقع أسيراً بيد المسلمين، فأمر الرسول أن يُقتل صبراً أي أسيراً ونفذ فيه أمر القتل علي بن أبي طالب[٥٤].

لذلك ارتبطت بداية القص في التراث العربي الإسلامي بوظيفتين مختلفتين؛ القص المرتبط بالهلاك والضلال، وهو الذي لا يتماشى وروح الدعوة المحمدية، وهو ما ورد عنه في المأثور: " إن بني اسرائيل لما قصوا هلكوا"[٥٥]، إشارة إلى وظيفته السلبية المضادة

لروح الدين، ولحقيقة القرآن والدعوة المحمدية. وفي الوقت نفسه فقد دعم موقف القاص الذي يوظف قصصه لخدمة الدين.

د) جلال القص الوعظي الاعتباري

لقد خص القص الوعظي تبعا لما سلف بإجلال خاص، فكان الرسول (ص) يحث على حضور مجالس القص والذكر والوعظ، حتى ورد في المأثور قوله، بعد سماعه وعظاً لعبد الله بن رواحة في مجلس للقصّ " لئن أقعدُ في مثل هذا المجلس أحبَّ إليّ من أن أعتق أربع رقاب"[٥٦]. وورد قوله أيضا "إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها، قيل ما رياض الجنة؟ قال الذكر"[٥٧]. وكما كان القرآن قد حدد وظيفة القصص كذلك حدد الرسول تلك الوظيفة. وهي التذكير والوعظ والاعتبار وكانت هذه هي الموجِّهات المهيمنة في نشوء أخبار وعظية اعتبارية وظفت في خدمة الدين.

وخلال القرنين الأول والثاني، كان القصّ يحظى بعناية كبيرة، كونه ينهض بمهمة الإرشاد والوعظ. وكان الخلفاء يحضرون مجلس القصاص أحياناً، مثل عمر بن الخطاب. وكان علي بن أبي طالب عليه السلام يراقب القصّاص ويتأكد من كفاءتهم الوعظية. ومرَّ يوماً بقاصّ في الكوفة فقال له: "أيها القاص أتقص ونحن قريبو عهد برسول الله؟ لأسألنك فإن أجبتني، وإلاّ خفقتك بهذه الدرّة، ما ثبات الدين وزواله؟ قال: أمّا ثباته فالورع، وأما زواله فالطمع، قال: أحسنت، قُصّ، فمثلك فليقصّ"[٥٨]. وكان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القاصّ، مع العامة بعد الصلاة[٥٩]. وكان القصّاص، إلى جانب عملهم، يقومون في بوظائف أخرى أحياناً مثل القضاء والحديث والقراءة في المسجد، وكان بعضهم من صحابة الرسول أو من التابعين أو أتباع التابعين، وتلحق بهم صفات الإجلال والثقة والتثبت دائما. فكان النظر إلى القص ممتثلا لمبادئ وتوجيهات القرآن والوحي، مؤطراً ضمن دائرة الفائدة والمنفعة والصلاح.

خاتمة

نخلص من كل ما سبق إلى حقيقة أن القرآن الكريم، كان له دوره الفاعل وحضوره القوي، وتأثيره الجلي في توجيه الاجتهادات النقدية والبلاغية منذ بداياتها الأولى؛ خلال البعثة النبوية، التي رافقتها حركة نقدية بلاغية مبتدئة وغير متخصصة، وصولاً إلى المراحل اللاحقة، التي شهدت تطوراً وازدهاراً للحركة النقدية والبلاغية في المجتمع العربي

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

الإسلامي، حين اشتد عضدها واستوت على سوقها، في شكل دراسات متخصصة واجتهادات متعمقة ودقيقة. وفي جميع الأحوال كانت هذه الاجتهادات تتحرك بوحي من توجيهات القرآن الكريم، وتسير على هدي ما أقره من مبادئ وتوجيهات، وما استطاع أن يشكله من أفق جماليّ ومعيار نقدي بلاغيّ مثاليّ، ظلت كل الاجتهادات الإنسانية تتحرك في إطار توجيهاته التخليقية العامة، وتفيئ إلى ظلال آفاقه الإنسانية الرحبة، التي استطاعت أن تستوعب الجماليات السائدة وتجعلها خادمة ومتعلمة في محضر عظمته وإعجازه. فلا يمكن قراءة الجهود النقدية والبلاغية على امتداد تاريخ تطورها عبر العصور في التراث العربي الإسلامي، من دون التسليم بمحورية النص القرآني بوصفه أسّاً للتفكير وإطاراً محدداً ومعياراً نموذجاً لآفاق الجمالية البيانية، التي بحث في تفاصيلها وامتداداتها النقاد والبلاغيون وعلماء اللغة والقراءات والأصوليون والفقهاء والمفسرون وغيرهم.

هوامش البحث

١ روح الله الموسوي الخميني، الآداب المعنوية لقراءة القرآن الكريم، إعداد محمد علي قطايا ، جمعية المعارف الإسلامية بيرت ط١، ١٩٩٨م، ص١١

٢ المرجع نفسه، ص، ٥٠-٥٢

٣ أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، دار النهضة العربية، لبنان، ١٩٦٨م، ص ٨١-٨٢

٤ عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار النهضة، مصر، ١٩٧٥، ص ٣.

٥ عباس رحيلة، الأثر الأرسطي في النحو والبلاغة العربيين حتى القرن الثامن الهجري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط، ١٩٩٩، ط١، ص ٢٦٤

٦ سورة التوبة، الآية ١٢٢

٧ سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٧٨، ص ٧٨

٨ أحمد مطلوب، البحث البلاغي عند العرب، دار الجاحظ للنشر، بغداد، ص ٤٦

٩ علي مصطفى الغرابي، تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٨٥، ص ٥٤

١٠ عباس ارحيلة، الأثر الأرسطي، مرجع مذكور، ص ٢٦١

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

١١ أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، منشورات الأعلمي، ج١٩ ص :٩

١٢ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين: ج٢ ص:٧٠

١٣ المصدر السابق، ج١ ، ص ١٩٥

١٤ المصدر السابق، ج ٢ ص ١٨٠

١٥ ابن زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، تحقيق محمد علي البجاوي، نهضة مصر، ص:٣٦

١٦المصدر السابق ص: ٣٥

١٧ ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٣٤

١٨ السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٧ج ١، ص ١٩٩

١٩ ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٣٤

٢٠ طبقات الشعراء، ص ٣٤

٢١ ابن رشيق، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ص ٥

٢٢ العمدة، ص ٥

٢٣ ابن قتيبة (أبو عبد الله محمد بن مسلم)، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، (د.ت،)، ج.١، ص ٥٩

٢٤ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٧

٢٥ المزهر، ج٢، ص ٣٥٦

٢٦عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي؛ القاهرة، ط٢، ١٩٨٩م، ص ٧

٢٧ دلائل الإعجاز، ص ٨

٢٨ دلائل الإعجاز، ص ٩

٢٩ نفسه، ص ٩

٣٠ محمد مشبال، البلاغة والأصول" دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي" نموذج ابن جني، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٧م،ص ١٣

٣١ حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بلخوجة، ط ٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٩

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

٣٢ الباقلاني، إعجاز القرآن، ص ٥١

٣٣ البلاغة والأصول، مرجع سابق، ص ٢٢

٣٤ أبو عبيدة، مجاز القرآن، تحقيق فؤاد سزكين، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م، ج١، ص ١٨.

٣٥ أبو بكر الباقلاني، دلائل الإعجاز، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة ٥، دار المعارف، القاهرة (د.ت)، ص ١٥٩

٣٦ البلاغة والأصول، ص ٢٥

٣٧ سيد قطب، التصوير الفني في القرآن ، دار الشروق، بيروت، ودار الثقافة بالبضاء، ١٩٨٨، ص ٣٤

٣٨ سورة هود الآية ١٢٠

٣٩ الكهف الآية ١٣

٤٠سورة الأنعام، الآية ٥٧

٤١ سورة الأعراف الآية ١٧٦

٤٢ سورة يوسف الآية ١١١

٤٣ سورة يوسف الآية ٣

٤٤وهذا ما يستفاد من جل الكتب النقدية القديمة التي عنيت بالسرد في بداياته الأولة، ينظر في:
ابن الجوزي ، كتاب القصاص والمذكرين ، تحقيق مارلين. بيروت ١١.
تلبيس ابليس تحقيق محمد منير الدمشقي ، القاهرة ٢٣
وابن عماد الحنبلي شذرات الذهب في اخبار من ذهب . الثعالبي . التمثيل والمحاضرة ، واخبار المذاكرة ، تحقيق الشالجي ١:٣ ، والمكي، قوت القلوب ٢:٤٨.الغزالي ، احياء علوم الدين ٢: ٣٣٨

٤٥سنن ابي داوود، ج.٢، ص: ٢٩٠، وقوت القلوب، ج ١، ص ١٩٥ والقصاص والمذكرين

٤٦الطبقات الكبير وتهذيب الأسماء واللغات ١: ١٧٣

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

٤٧ابن كثير ، نهاية البداية في الفتن والملاحم ، تحقيق محمد فهيم أبو عبية ، الرياض ١: ٩٤،٩٦ . واخبار الزمان ١٢٢

٤٨ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ،ج ٢، ص ٤٩

٤٩ابن هشام، السيرة النبوية، بيروت ٢: ٨ ، والكامل في التاريخ ، ٢: ٤٩.

٥٠ سورة الفرقان الآية ٥

٥١سورة القلم، الآية ١٥، والمطففين الآية ١٣

٥٢سيرة ابن هشام، ج٢، ص ١٣

٥٣سورة الجاثية الآيتان٧-٨

٥٤سيرة ابن هشام، ج٢، ص ١٦

٥٥الأبشيهي، المستطرف من كل فن مستظرف، ج١، ص: ٩

٥٦ المصدر نفسه، ١٦

٥٧أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب، دار صادر بيروت، ج ٢، ص: ٢٦٢

٥٨ابن الجوزي، القصاص والمذكرين، تقديم محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، ص ٢٥

٥٩القصاص، ص ٣٦

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا: المصادر

- الأبشيهي شهاب الدين محمد، المستطرف في كل فن مستظرف، تح. محمد خير طعمه الحلبي، دار مكتبة الحياة ،١٩٩٩
- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، ط. ٥، دار المعارف، القاهرة (د.ت)،
- أبو طالب المكي، قوت القلوب في معاملة المحبوب، دار صادر بيروت،
- أبو عبيدة. مجاز القرآن، تحقيق فؤاد سزكين، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين: تح. عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د.ت)
ـ أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، منشورات الأعلمي، (ج١٩)
ـ جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٧م.
ـ ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن، القصاص والمذكرين، تقديم محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي،
ـ ابن رشيق، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت.
ـ ابن زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح. محمد علي البجاوي، نهضة مصر
ـ ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.
ـ ابن قتيبة (أبو عبد الله محمد بن مسلم)، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف، (د.ت).
ـ ابن كثير، النهاية في الفتن والملاحم ، تح. عصام الدين الصبابطي، دار الحديث.
ـ ابن هشام، السيرة النبوية، تح. سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
ـ حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بلخوجة، ط ٣، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.
ـ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مكتبة الخانجي؛ القاهرة، ط٢، ١٩٨٩م.

ثانيا: المراجع

أحمد خليل، المدخل إلى دراسة البلاغة العربية، دار النهضة العربية، لبنان، ١٩٦٨م.
أحمد مطلوب، البحث البلاغي عند العرب، دار الجاحظ للنشر، بغداد، (د.ت)
سامي النشار، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٧٨م
سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، بيروت، ودار الثقافة بالبيضاء، ١٩٨٨م.

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

ـ روح الله الموسوي الخميني، الآداب المعنوية لقراءة القرآن الكريم، إعداد محمد علي قطايا ، جمعية المعارف الإسلامية بيرت ط١، ١٩٩٨م،

محمد مشبال، البلاغة والأصول" دراسة في أسس التفكير البلاغي العربي" نموذج ابن جني، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٧م.

عباس رحيلة، الأثر الأرسطي في النحو والبلاغة العربيين حتى القرن الثامن الهجري، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط، ١٩٩٩، ط١.

عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار النهضة، مصر، ١٩٧٥م.

علي مصطفى الغرابي، تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٨٥م.

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online